أبو الحسن الندوي

غارة التتار على العالم الإسلامي

وظهور معجزة الإسلام

المختار الإسلامي

غارة التتــار على العالم الاسلامى
وظهـــور معجـــزة الاســـلام

بسم الله الرحمن الرحيم

أبو الحسن الندوي

غارة التتار على العالم الإسلامي

وظهور معجزة الإسلام

المختار الإسلامي
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة — ص. ب ١٧٠٧
هاتف ٦٣٦٤٦٦

حقوق الطبع محفوظة

الطبعـــة الثـــانية
١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٣ م

غارة التتار وأسبابها الحقيقية فى ضوء القرآن :

واجه العالم الاسلامى فىالقرن السابع الهجرى كارثة يندر نظيرها فى تاريخ العالم ، وكادت تقضى هـــذه الكارثة على شخصية العالم الاسلامى ، وهو زحف الوحوش التتار الذين تقدموا نحو الشرق كجراد منتشر . وسيطروا على العـــالم الاســـلامى كله .

والمعروف أن السبب فى هـــذه الكارثة ، هو خطأ ارتكبه السلطان علاء الدين محمد خوارزم ، وذلك أنه أمر بقتل التجار التتار الذين دخلوا بلاده لممارسة التجارة . ولـــما أرسل اليه جنكيز خان سفيرا يسأله عن سبب قتل التجار ، قتله أيضا ، فاشتعل جنكيز خان غضبا ، وقام بحملة هوجاء على مملكة خوارزم شاه ، ثم على عالم الاسلام كله .

---

(١) فصل كتبه المؤلف فى « أردو » لكتابه « تاريخ دعوة وعزيمة » ، ونقل فكره الاستاذ سعيد الاعظمى الى العربية .

ولكن اذا تدبرنا فى ضوء ذلك القانون العام الخالد لنتائج الأعمال والأخلاق ، وازدهار الأمم وانحطاطها الذى أشار اليه القرآن ، ولا سيما ما ذكره فى بدء سورة الاسراء من تدهور بنى اسرائيل وافسادهم فى الارض ، وعلوهم وتمردهم وما جر ذلك الى زحف الملوك الظالمين ، وتسلطهم على بنى اسرائيل وخراب المسجد الأقصى ، يبدو لنا أن السبب الحقيقى فى هذه الفتنة الكبرى ، والمحنة التى أصيب بها العالم الاسلامى ، ليس أن يقترف ملك أو حاكم من خطأ فى التدبير والسياسة ، فيتدفق سيل عرم من المحن والبلاء ، ويفاجىء العالم الاسلامى ، وتصاب الأمة الاسلامية بهذه الفتنة العمياء — التى لم تكن تتوقعها ولا تستحقها — لمجرد أن يخطىء فرد من أفرادها .

اذا حملنا نبراس القرآن فى يدنا ، واستعرضنا أوضاع المسلمين الخلقية والدينية ، والمدنية والسياسية فى ذلك العصر تحقق لنا كالشمس فى رابعة النهار ، أن هذه الحادثة المشئومة لم تكن مفاجاة ، وانما هناك أسباب أكثر عمقا وأصالة مما ظنه الناس وذكروه ، ولكى نبحث عن هذه الأسباب العميقة الأصيلة يجب أن نتأخر الى سنين عديدة من وقوع هذه الكارثة ، وندرس باجمال أوضاع الدول الاسلامية ومراكز الثقافة والمدنية والمجتمع فى ذلك العصر .

أوضاع مركز الخلافة والعالم العربى فى هذا العصر :

ان المملكة الأيوبية توزعت بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبى فى سنة ٥٨٩ هـ بين أولاده وأفراد أسرته ، ولكن هؤلاء لم يستخدموا مؤهلاتهم وكفاءاتهم فى أداء هذه الأمانة التى آلت اليهم ، شأن كثير من أولاد الولاة ، وأولى العزم من الحكام ،

فقد ظل الصراع قائما بينهم الى مدة طويلة ، حتى أن بعضهم لم يتلكأوا فى الاستعانة بالصليبيين بتدبير المؤامرة ضد اخوانهم وأصحابهم ، وقد أنتج هذا الوضع الشاذ اضطرابا سياسيا ، وانحلالا خلقيا ، وفوضى فى سائر الولايات التابعة لهذه المملكة، وكان الناس يعيشون فى جو من القلق والخوف .

هذا وكانت الغارة الصليبية الأفرنجيـــة تتعاقب على تلك الحواضر الاسلامية ، التى كان السلطان صلاح الدين قــد استردها بعد تضحيات ضخمة ، وقد فشت أمراض وأوبئة ومجاعات شديدة نتيجة لهذا الانحطاط الخلقى ، والانحراف الادارى ، وفى سنة ٥٩٧ هـ حدثت مجاعة فى مصر فما فــاض فيها النيل ، وتزلزلت أرض مصر بمنازعات الملكين العـــادل والأفضل ، حتى اشتد الغلاء بأرض مصر ، فهلك خلق كثير جدا من الفقراء والأغنياء ، ثم أعقبه فناء عظيم حتى حكى الشيخ أبو شامة فى الذيل :

« ان العادل كفن من ماله فى مدة شهر من هذه السنة نحوا من مئتى ألف وعشرين ألف ميت ، وأكلت الكلاب والميتات فيها بمصر ، وأكل من الصغار والأطفال خلق كثير ، يشوى الصغير والداه ويأكلانه ، وكثر هذا فى الناس جدا حتى صار لا ينكر بينهم ، فلمـــا فرغت الأطفال والميتات غلب القوى الضعيف فذبحه وأكله (١) » .

واستمرت هذه الحال وفقا لسنة الله فى الارض ، وظلت الانذارات السماوية ، والأحداث الجسام تحذر الناس ، وكانت كفيلة بأن تبعث الناس على التوبة والانابة الى الله ، واصلاح

---

(١) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٦ .

أحوالهم « وحدثت فى نفس هذه السنة زلزلة عظيمة ابتدأت من بلاد الشام الى الجزيرة والروم والعراق ... وأخربت محال كثيرة من طرابلس ونابلس ، ولم يبق بنابلس سوى حـــارة السامراء ، ومات بها وبقراها ثلاثون ألفـــا تحت الردم ... ومات أمم لا يحصون ولا يعدون ، حتى قال صاحب « مرآة الزمان » : أنه مات فى هذه السنة بسبب الزلزلة نحو من ألف ألف ومائة الف انسان قتلا تحتها (١) والله أعلم .

هذا ، وقد تفـــاقم الشر فى مركز الخلافة (دار الســـلام بغداد) ، وسيطرت عليه مظاهر الأبهة الملوكية والســـلطان الأعمى ، وتغلغل نفوذ الخدم والحشم فى قصور الخلفـــاء ، وبلغت الثروة والمدنية ذروتهما ، ولا يمكن أن نتصور ما كان يمتلكه الخدم والمماليك الذين كانوا لدى الخلفـــاء من المـــال والعقـــــار .

ويكفى أن نذكر على سبيل المثال ، أن علاء الدين الطبرسى الظاهرى ، وهو ممن اشتراهم الخليفة الظاهر ، كان يحصل له من أملاكه التى استجدها نحو ثلاث مئة ألف دينار سنويا ، وكانت له دار لم تكن ببغداد مثلها ، وكذلك مجاهد الدين ايبك الدويدار المستنصرى ، وقد ملك جزيل الأموال من العين ، والرقيق ، والدواب ، والعقار ، والبساتين والضياع ، ويتعذر وصف ما أنفقه من قنـــاطير مقنطرة من الذهب والفضـــة ، والجواهر التى جهز بها أولاده وبناته فى ليالى الزفاف ، كمـــا أن الفراش الصلاح عبد الغنى بن فاخر المتوفى ٦٤٨ هـ ، وكان شيخ الفراشين بدار الخلافة ، كان يعيش مع خلوه من العلم عيشة الملوك ، بينما كان مدرسو المدرسة المستنصرية فى هذا

---

(١) أيضـــا ص ٢٧ .

العصر وهم من كبار علماء بغداد بوصفهم يدرسون فى أكبر جامعة اسلامية فيها . لا يتقاضى الواحد منهم أكثر من ١٢ دينارا شهريا .

وبجانب ذلك نجد أن ٤٠٠٠ دينار ينثرها خادم للشرابى على مجد الدين ايبك المستنصرى ، المعروف بالدويدار الصغير عند زواجه من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وأن ٣٠٠٠ دينار أعطاها الشرابى للأشخاص الثلاثة الذين أتوا بطائر من الموصـــل .

ولكى ندرك مدى نفوذ هذه المظاهر الكاذبة ، والتظـــاهر بالفخفخة والأبهة الملوكية يجب أن نعرف أن المواكب التى كانت تخرج فى مناسبات العيد والتتويج كانت تشغل الناس ، حتى أنهم كانوا يتناسون أنفسهم ، ويتشاغلون عن أداء الصلوات ، ونستطيع أن نقيس ذلك بالموكب الملكى ، الذى خرج يوم عيد الفطر سنة ٦٤٠ هـ استمر الى الليل ، وصلى الناس صلاة العيد قبل نصف الليل قضاء (١) ، وذكر فى « المسجد المسبوك » أن العساكر فى عاشر ذى الحجة سنة ٦٤٤ هـ خرجوا الى ظاهر البلد ، وصلوا صلاة العيد وقت غروب الشمس ، وأما تقبيل الأرض بحضرة الخليفة مرات عديدة ، فمن الأمور المـــألوفة ، وكذلك تقبيل اليد وعتبة باب النوبى ، وحافر الخيل والأرض والرغـــام .

وقد تميز هذا العصر بكثرة المصادرات ، وتفشى الرشوة وعزل كبار الموظفين ، والقاء القبض عليهم ، وبيع ممتلكاتهم وتفاقم أمر الباطنية والشطار والعيارين ، واشتداد النزاع

---

(١) الحوادث الجامعة أخبار سنة ٦٤٠ هـ .

الطائفى والتفكك الخلقى ، والانصراف الى الملاهى والقيان والتكاثر فى الأموال » (١) .

وفى نفس هذه الأيام كان التتر يعبثون بكرامة فارس وتركستان ، ويأتون عليهما من كل جانب وكانت أبصارهم شاخصة الى بغداد ، أكبر مركز اسلامى فى ذلك العهد ، يتحدث المؤرخ الشهير ابن كثير عن استهلال سنة ٦٢٦ هـ بما يأتى :

« استهلت هذه السنة وملوك بنى أيوب مفترقون ، مختلفون » ، وظلت بغداد دار الخلافة الاسلامية مركزا للاضطراب والفساد ، ولم يتمكن الناس من السفر للحج ، ولا استطاع الخليفة تغيير كسوة الكعبة الشريفة ، التى قد جرت عادة خلفاء الاسلام من قديم بتغييرها ، بين ٦٤٠ هـ و ٦٤٣ هـ ، وبقيت جدران الكعبة عارية عن الكسوة الى ٢١ يوما ، فتشاءم به الناس .

فى سنة ٥٧٥ هـ جلس الخليفة الناصر لدين الله على عرش الخلافة ، وطالت أيام خلافته الى أكثر من ٤٦ سنة ، وهى مدة طويلة لم تتيسر لأحد من الخلفاء العباسيين ، ولكنها أظلم عهد فى تاريخ الخلافة العباسية ، وقد ذمه المؤرخون وتناولوا أعماله وأخلاقه بالنقد اللاذع ، يتحدث عنه المؤرخ ابن الأثير ،فيقول:

« وكان قبيح السيرة فى رعيته ظالما ، فخرب فى أيامه العراق وتفرق أهله فى البلاد ، وأخذ أملاكهم وأموالهم ، وكان

---

(١) استفدنا فى هذا الفصل من مقال « عصر الشرابى ببغداد » للاستاذ ناجى معروف المنشور فى مجلة « الاقلام » عدد محرم سنة ٨٦ هـ .

يفعل الشيء وضده ، فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغـداد ليفطر الناس عليها فى رمضان فبقيت مدة ثم قطع ذلك ، ثم عمل دور الضيافة للحجاج فبقيت مدة ثم أبطلها ، وأطلق بعض المكوس التى جددها ببغداد خاصة ، ثم أعادها ، وجعل جل همه فى رمى البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة فبطل الفتوة فى البلاد جميعها ، الا يلبس منه سراويل يدعى اليه ، ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة ، فأجابه الناس بالعراق وغيره الى ذلك ، فكان غرام الخليفة بهذه الأشياء من أعجب الأمور ،وكان سبب ما ينسبه العجم اليه صحيحا من أنه هو الذى أطمع التتر فى البلاد وراسلهم فى ذلك (١) » .

توفى الخليفة الناصر لدين الله سـنة ٦٢٢ هـ ، وخلفـه المستنصر بالله ، وكان جميل الصـورة حسن السريرة جيد السيرة كثير الصدقات والبر والصلات ، محسنا الى الرعية بكل ما يقدر عليه ، فكان نموذجا للخلفاء الصالحين فى كثير من خصائصه وعاداته ، ولكنه — مع الأسف — لم يجد فرصـة للتنظيم والاصلاح ، وخلفه ولده المستعصم بالله فى سنة ٦٤٠هـ وكان المستعصم صحيح العقيدة متدينا يظهر عليه خشـوع وانابة لم ينقل عنه أنه عصى الله بفمه ، ولا بفرجه ، ولا شرب مسكرا ، ولا أخل بصيام الاثنين والخميس من كل شهر ، وكان يصوم شهر رجب من كل سنة ، وكان يحفظ القرآن مواظبا على الصلوات فى أوقاتها الا أن المستعصم لم يكن بصيرا بتدبير الملك على ما رواه ابن كثير ، وكان فيه لين وعدم تيقظ ، ومحبة للمـال وجمعه .

وفى سنة ٦٤٢ هـ استوزر الخليفة المستعصم بالله محمد ابن العلقمى ، ولكنه لم يكن وزير صدق ولا مرضى الطريقة ،

---

(١) تاريخ الكامل ج ١٢ ص ١٨١ .

فاضطرب نظام الحكومة ، ولما وقعت الحرب العظيمة بين أهل السنة والرافضة فى سنة ٦٥٥ هـ « نهبت فيها الكرخ ومحلة الرافضة ، حتى نهبت دور قرابات الوزير ، فاشتد حنقه على ذلك ، فكان هذا مما أهاجه على أن دبر على الاسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع الذى لم يؤرخ أبشع منه منذ بنيت بغداد » (١) .

وبالرغم من أن التتار كانوا يتقدمون نحو بغداد ، وكان الخطر التتارى يقرع الأبواب ، كانت « جيوش بغداد فى غاية القلة ونهاية الذلة لا يبلغون عشرة آلاف فارس ، وهم بقية الجيش كلهم قد صرفوا عن اقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم فى الأسواق وأبواب المساجد ، وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الاسلام وأهله ، وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمى الرافضى » (٢) .

كان المستعصم رجلا صالحا حسن السيرة والفكر ، وكان يحرص على اصلاح الأوضاع ورفاهية البلاد ، ولكن فساد الناس واضطرابهم وفساد رجال الحكومة ، بلغ مبلغا لا يؤثر فيه الا من رزق الارادة القوية ، والشخصية العبقرية ، ومن يستطيع أن يقف سدا منيعا فى وجه الفساد ، ويتغلب على الأوضاع السيئة ، ولم ينفع فى مثل هذه الحال الا العظماء الذين افتتحوا عهدا جديدا ، وأسسوا حكومات جديدة فى التاريخ .

ولقد تكرر فى التاريخ أن آخر أفراد أسرة حاكمة ، وآخر حاكم فى مملكة آخذة بالانحطاط كان يتصف بالصلاح والتقوى ،

(١،٢) البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٠١ .

غير أن تلك الأسرة أو المملكة كانت قد وصلت الى آخر نقطة من الاضمحلال والتدهور ، وكان الفساد قد تفاقم والكأس قد طفحت ، فلم يكن هنالك من يحول بين الحكومة وبين نهايتها الأليمة التى كان يفرضها قانون السماء ، وتقتضيها طبائع الاشياء . وشاءت الأقدار أن يعتبر ذلك الرجل الاخير مسؤولا عن نهاية الحكومة فى أسرته الحاكمة بالرغم من أنه كان أكثر صلاحا وديانة ، وأحرص على اصلاح الفساد من سلفه الماضين .

وقد كان عدد الصالحين مشتغلين بالعلم والتدريس والعبادة كما كان عدد منهم معتزلين فى الزوايا والمساجد ، ولكن الفساد كان قد استحوذ على طبقة الحكام والمترفين ، يقول المؤرخ ابو الحسن الخزرجى يصف أهل العراق يومئذ :

« واهتموا بالاقطاعات والمكاسب ، وأهملوا النظر فى المصالح الكلية . واشتغلوا بما لا يجوز من الامور الدنيوية ، واشتد ظلم العمال ، واشتغلوا بتحصيل الأموال ، والملك قد يدوم مع الكفر . ولا يدوم مع الظلم » (١) .

القسم الشرقى من المملكة الاسلامية :

وكان ملوك الخوارزم منفردين بالحكم فى الجزء الشرقى للعالم الاسلامى ، قامت دولتهم ذات الشوكة على أنقاض المملكة السلجوقية فى آخر القرن الخامس الهجرى ، وكان العالم الاسلامى كله خاضعا للحكم الخوارزمى باستثناء مصر

(١) مقال الاستاذ ناجى معروف « عصر الشرابى ببغداد » « الاقلام » ع محرم ١٣٨٦ هـ .

والشام ، والعراق والحجاز ، والمنطقة السلجوقية الصغيرة الواقعة في الشمال الغربي لآسيا الصغرى ، وكان علاء الدين محمد خوارزم شاه (٥٩٦ ــ ٦١٧) أعظم ملوك الأسرة طموحا، وأعلاهم همة ، وأكثرهم فتحا وانتصارا ، وهو أكبر ملك مسلم وأقواهم في عهده ، يتحدث عنه المؤرخ « هيراد ليمب » في كتابه « جنكيز خان » فيقول :

كان السلطان محمد خوارزم شاه متربعا على عرش الملك في قلب البلاد الاسلامية ، وكانت رقعة ملكه تمتد من ثغور الهند الى بغــداد ، ومن بحر الخوارزم (آرال) الى خليج الفرس ، وكان مسيطرا على الممالك الاسلامية كلها عدا دولة الاتراك السلاجقة الذين انتصروا على الصــليبيين ، واسرة السلاطين من مماليك مصر ، وكان السلطان محمد امبراطورا بالنظر الى مكانته ، وبالرغم من أن الخليفة العباسي الناصر لدين الله سخط عليه ، ولكنه كان يعترف بقوته ، ان الخليفة في بغداد بعد ما تجرد عن كل سلطان دنيوى عاد مجرد رمز دينى، شأن البابوات في رومة » (١) .

أما المؤرخون العرب ، فانهم لا يشيرون الى موضع ضعف وعيب شخصى كبير في سلوك محمد خوارزم شاه وأخلاقه ، بل أنهم يعترفون بتدينه ، وحسن عقيدته وشجاعته وتصلبه بوجه عام ، ولكن الذى لا خلاف فيه ، أنه بذل جميع مواهبــه وطاقاته في القضــاء على الحكومات الاســلامية الصــغيرة والكبيرة ، حيثما وجدت في هذا الجــزء الشرقي الواسع أنه اضطر السلاجقة الى التأخر والانسحاب الى آخر حدودهم في

(١) جنكزخان ص ١٤٧ .

جانب . كما أنه ظل يحارب الغوريين في الشرق والجنوب فى جانب آخر . واضطرهم الى الانحسار فى جزء محدود ، وأن خيرة عناصر الفروسية والنضال فى ايران وتركستان ، قد اتخذتها الحروب الطاحنة المتواصلة . التى لم تكد تنتهى ، فكان الجو الحربى يسـود المدن والأقاليم الخصبة الغنيـة وعلى مشاعر أهلها فى كل حين . وقد اجتمعت غنائم البلاد المفتوحة ، وحاصلات الأقاليم الخصبة ، وتأنق الصناع فى الصناعات ، وأدوات الزينة ، فبلغت بذلك كله المدنية أوجها ، واجتمعت جميع عوامل الغنى والجدة والرفاهية والانتصارات وما يتبعها من ترف وبطر .

ومن الصعب العسير أن يوجد حديث عن الأدواء الخلقية ، التى كانت تعانيها الحضارة والمجتمع ، فى كتب التاريخ التى تدور حول البلاط الملكى ، والسرائى ، ورجال الحكومة ، وان مظنة هذا الحديث هى كتب المشائخ الصوفية ، والمصلحين الاجتماعيين ، وكتب المواعظ ، التى اكتسح معظمها السـيل التتارى ، ولا يسـعنا أن نحمل ما صرح به المؤرخ المسيحى « ديرلد ليمب » فى كتابه « جنكيز خان » على مجرد التعصب الدينى والمبالغة ، انه يقول :

« ان العالم الذى كان يعيش فيه المسلمون كان عالم الحرب والجلاد ، وكان لا يخلو من شغف بالغناء الموسيقى ، ومن الطرب والاهتزاز . لكنه رغم هذا الظاهر كان يعيش فى قلق واضطراب ، فكان المماليك والعبيـد يحكمون مكان الملوك والسلاطين ، وقد بالغ الناس فى جمع الأموال والثروات ، وقد انتشرت الأدواء الخلقية والمؤامرات السياسية ، وكان زمام الأمور فى يد أولئك الذين كانوا ينهبون الرعية ، ويترفهون على

حسابهــا ، وكان حراسة الحرم ، والاشراف على السرائى للخصــيان » (١) .

خطأ الملوك الخوارزمية :

وقد صدر عن الملوك الخوارزميين نفس الخطأ الكبير الذى وقع فيه الحكام العرب فى الأندلس ، ولم يعف عنهم قــانون المكافأة الالهى . وذلك أنهم بذلوا كل قواهم فى توسيع رقعــة الملك ودعمه ، وقمع الخصوم ، ولم يبذلوا أى اهتمام بتبليغ رسالة الاسلام الى ذلك القسم البشرى الذى كان يعيش بجوار حدودهم ، وكان بنفسه عالمــا مستقلا ، وبصرف النظر عن الدافع الــدينى والواجب الاســلامى ، كان مقتضى الحــزم السياسى وبعد النظر أن يعنوا بايجاد الانسجام العقائدى مع هذه الدنيا الانسانية الواسعة ، وبذلك يكونون قد أقاموا حولهم سياجا ، يحفظهم عن ذلك الخطر الذى لم يواجههم وحدهم فحسب ، بل اكتسح المسلمين كلهم .

زحف التتار نحو العالم الاسلامى :

فى نفس هذه الأحوال والزمان تقدم التتــار بادىء بدء ، كعقاب الهى بقيادة ملكهم « جنكيز خان » (٢) نحــو الجــزء الشرقى للعالم الاسلامى ، ايران وتركستان حتى وصلوا الى بغداد التى أسلفنا ذكرها ، وأخيرا قاموا بتدميرها وابادة أهلها

---

(١) جنكز خان ص ١٤٣ .

(٢) مبدأ مملكة جنكيزخان سنة ٥٩٥ هـ ، وأول حملة على حكومة خوارزم شاه كانت فى سنة ٦١٦ هـ ، وقد مات جنكيزخان ٦٢٤ هـ ، فقــام أبناؤه وأحفاده بتحقيق غاياته التى أرادها ، فلما واجهت بغــداد الغارة التتارية سنة ٦٥٦ هـ ، كان هلاكو حفيد جنكزخان قائد القوات التتارية وأميرها .

سنة ٦٥٦ هـ؛ « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة، واعلموا أن الله شديد العقاب »(١) .

ان الدافع القريب لهذا الزحف التتارى . فى عالم الأسباب، هو أن جنكيز خان بعث الى خوارزم شاه رسولا يقول له : انك حاكم رقعة عريضة كما أننى أملك مملكة واسعة . فاذا قامت بين المملكتين علاقات تجارية ؛ وسمح للتجار بتبادل التجارات بين البلدين كان ذلك فى صالح البلدين . فقبل ذلك خوارزم شاه، وقامت العلاقات التجارية ؛ وبدأ التجار يتبادلون أموال التجارة بين البلدين ؛ ولكن ما الذى حدث بعد ذلك حتى شهد العالم الاسلامى ذلك اليوم المشؤوم الذى يدعى بغارة التتار ؟ ولنقرأ ما كتبه عن ذلك المؤرخ الغربى « هيرلد ليمب » ويصدقه تماما ما جاء فى التاريخ الاسلامى ؛ أنه يقول :

« انفصمت العلاقات التجارية التى أقامها جنكيز خان بين البلدين فجأة ؛ وكان السبب فى ذلك أن قافلة من التجار كانت متوجهة من « قراقورم » الى الغرب ؛ فلما وصلت الى « أترار » تعرض لها حاكمها الذى كان يدعى باينل جق وأسر رجالها ؛ وأخبر ملكه خوارزم شاه بذلك ؛ وقال أن هذه القافلة لا تخلو من جواسيس جنكيز خان ؛ وكان هذا الخبر مما يؤيده العقل .

وما أن وصل الخبر الى خوارزم شاه حتى أمره بقتل التجار كلهم دون أن يفكر فى هذه القضية ؛ ويتأنى فى اصدار الأمر ؛ ونفذ أمره بقتل التجار الذين جاءوا من قراقورم . ولما علم بذلك جنكيز خان ؛ أرسل سفراءه الى خوارزم شاه يشكو اليه ما حدث مع هؤلاء التجار ؛ وانتهز خوارزم شاه الفرصة فقتل

---

(١) سورة الانفال ٢٥ .

رئيس السفراء ، وأمر باحراق لحى الباقين ، الذين رجعوا الى جنكيز خان وقدموا عليه القصة وفور سماع هذه القصة صعد جنكيز خان على جبل فى « صحراء الجوبى » ليفكر فى القضية ، لأن قتل رسول المغول كان جريمة لا تغتفر . وكان لابد من الانتصار لها حسب ما جرت عادة المغول فى مثل هذه الأمور .

وأعلن جنكيز خان قائلا : اذا كانت السماء لا تحتمل وجود شمسين . فان الأرض كذلك لا تحتمل وجود ملكين »(١) .

الجزء الشرقى للعالم الاسلامى بين النار والدمار :

وقد ابتدأ التتار ببخارى وأتوا عليها من كل جانب ، فدمروها حتى عادت كومة من تراب ، ثم توجهوا الى سمرقند وأحرقوها وأبادوا أهلها ، ولقيت نفس المصير المدن الشهيرة للعالم الاسلامى كهمدان وزنجان ، وقزوين ، ومرو ، ونيسابور ، وخوارزم ، أما خوارزم شاه الذى كان يعتبر الملك الوحيد للعالم الاسلامى وأقوى الملوك فى عصره ، فكان يعيش فى خوف وهلع ، وتنقل وارتحال ، يبحث عنه التتار ويتعقبونه حتى توفى فى جزيرة مجهولة .

كان خوارزم شاه قد ضم ولايات فارس وتركستان المسلمة ودولهما المستقلة الى مملكته ، فلما هزمه التتار لم يكن هناك من يقاومهم فى هذا الجزء الشرقى ، وقد دخل رعب التتار فى قلوب المسلمين ، الى حد أن أحد التتار دخل بعض الأحيان فى سكة من سكك مدينة حيث وجد مئة رجل من المسلمين ، فقتلهم كلهم وأتى على آخرهم دون أن يتجرأ أحد منهم لمقاومته.

---

(١) جنكزخان ص ١٤٧ .

وذات مرة دخلت امرأة تاتارية بيتا متزيية بزى الرجال ، وقتلت جميع أفراد الاسرة ، وقد عرف أحد المسجونين الذى كان معها أنها امرأة فقتلها ، وقد حدث بعض الأحيان أن تاتاريا أسر مسلما وقال له ضع رأسك على هـــذا الحجر حتى آتى بالخنجر فأذبحك ، وخضع له المسلم ولم يسعه أن يبرح مكانه ذاك ، ثم أتى التتارى بالخنجر من المدينة وذبحه به(١) .

كانت غارة التتار فتنة عظيمة ، ومحنة كبيرة ، هزت العالم الاسلامى هزا عنيفا ، وتركت المسلمين مبهوتين مشدوهين ، واستولى الرعب والخوف على العالم الاسلامى من أقصاه الى أقصاه ، وغلب على الناس اليأس والتشاؤم ، فكانوا يعتبرون التتار بلاء سماويا ، ومقـــاومتهم مستحيلة ، وانهزامهم فوق القياس ، حتى ســـار المثل : « اذا قيل لك أن التتر انهزموا فلا تصدق » فكل بلاد أو دولة توجهوا اليها عرف أنها أبيدت وخربت ، ولم يبق فيها شىء من مقدسات المسلمين الا وانتهكت حرمتها ، فكان اتجاه التتار الى جهة يرادف معنى التـــدمير والابادة ، والذلة ، وانتهاك الاعراض ، ولا شك أن العـــالم الاسلامى كله ولا سيما الجزء الشرقى منه وقع تحت هـــذه الفتنة العمياء على بكرة أبيه ، أن المؤرخ يشتغل بتسجيل كل لون من ألوان الأحداث والوقائع ، وتمر به مناظر كثيرة لابادة الأمم والبلدان حتى يتعود احتمـــال كل ذلك ، فيجرى قلمـــه بتسجيل هذه الحوادث من غير أن يرق لها قلبه ، وتدمع لهـــا عينه ، ولكن المؤرخ الشـــهير ابن الاثير لم يتمكن من اخفـــاء شعوره الجريح وتألمـــه النفسى ، حينما وصل الى ذكر حادث التتار ، أنه يقول :

---

(١) من أراد التفصـــيل فليرجع الى الكامل لابن الاثير ج ١٢ ، ودائرة المعارف للبستانى ج ٦ مادة « تتر » .

« لقـد بقيت عدة سنين معرضـا عن ذكر هـذه الحادثة استعظاما لها كارها لذكرها فأنا أقدم اليه رجلا وأؤخر أخرى، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب نعى الاسلام والمسلمين ؟ ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت أمى لم تلدنى ، ويا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ، الا أنى حثنى جماعة من الأصـدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعا ، فنقول هـذا الفصل يتضمن ذكر الحـادثة العظمى ، والمصيبة الكبرى ، التى عقمت الأيام والليالى عن مثلها وعمت الخلائق ، وخصت المسلمين ، فلو قال قائل أن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم الى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا ، فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا مايدانيها ، ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة ، الى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا الا يأجوج ومأجوج ، وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والاطفال ، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة ، فانا لله وانا اليه راجعون ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، لهذه الحادثة التى استطار شررها وعم ضررها وسارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح »(١) .

ويقول مؤلف « مرصاد العباد » : الذى شهد هذه الوقعة بعينه وما دار فى مولده « الرى » وموطنه « همدان » من حوادث فظيعة ومن التخريب والتدمير :

« استولى الجيش التتارى — خذلهم الله ودمرهم — سنة ٦١٨ هـ على بلاد الاسلام ، لا يعرف نظير لما قام به هؤلاء الوحوش من الفتنة والافساد ، والقتل والهدم والاحراق

(١) الكامل لابن الاثير ج ١٢ ص ١٤٧ — ١٤٨ .

وما ظهر من اولئك الملاعين من فظائع تقشعر منها الجلود في أي عصر من عصور التاريخ ، لا في الاسلام ولا في الجاهلية، فقد قتلوا وأسروا في « ري » وحدها التي هي مولدي أكثر من سبع مئة ألف مسلم، ان الفتنة التي أثاروها في العالم الاسلامي، والمصيبة التي أنزلوها على المسلمين لا تسع الكلمات أن تصورها ، وهذه الحادثة أغنى من أن تشرح للناس .

وعياذا بالله ، اذا لم تتحرك حمية الاسلام وغيرته في ملوك المسلمين وسلاطينهم ، ولم يذكروا أنهم مسؤولون عن الامة لقوله صلى الله عليه وسلم : « الامير راع على رعيته وهو مسئول عنها » واذا لم تنبعث فيهم أريحيتهم ورجولتهم لكي يتحدوا على كلمة واحدة ، وينقادوا لما أمرهم الله به في قوله: انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله » واذا لم يستعدوا لبذل النفس والمال والملك لكي يدفعوا هذه الفتنة ، فان ذلك كله يدل على أن المسلمين سيفاجئهم الذل والنكسة ، وترتمي معظم بلاد الاسلام في أحضان الكفر ، وأخشى أن المسلمين الذين كانوا لا يحملون الا الاسم ، سيفقدون الاسم والرسم كليهما نتيجة لما ندعيه ولا نعمل به »(١) .

صاعقة نزلت على العالم كله :

ولم يكن العالم الاسلامي وحده مصابا بهذه الفتنة التتارية ، وانما العالم المتمدن كله كان متوجلا من هذه الغارة ، وقد تفشى الذعر والخوف في الامكنة التي لم يكن يرجى فيها وصول التتار ، يقول « جبن » في كتابه الشهير « تاريخ انحطاط رومة » :

---

(١) مرصاد العباد (المخطوط ، المحفوظ في مكتبة ندوة العلماء) ص ٨

« حينما اطلع سكان السويد على أخبار غارة التتار عن طريق روسيا ، تسلط عليهم من الذعر والخوف ما منعهم عن الخروج الى سواحل انجلترا لصيد الأسماك ، وقد كان ذلك عادة متبعة لديهم » .

وقد تصدى المؤلفون « لتاريخ العهد المتوسط للكيمبردج » بذكر صدام المغول الشديد الذى كان سببه جنكيز خان بما يلى :

« لم يكن فى وسع الانسان أن يسد سيل المغول ، فقد تغلبوا على جميع أخطار الصحارى والغابات ، ولم يقف فى وجههم أى شيء من الجبال والبحار ، وشدائد الطقوس والفصول ، والقحط والأوبئة ، ولم يكونوا يخافون أى خطر ولا مانع ، ولا كان هناك قلعة ترد هجومهم ولا كانت تؤثر فيهم استغاثة من مظلوم .. نحن نواجه هنا فى مجال التاريخ قوة جديدة ، قامت بتقديم الحل السريع لكثير من القضايا المعقدة السياسية والوطنية ، التى كانت تشغل العقول فى ذلك العصر ، وقضت عليها كما تقضى الصاعقة التى تنزل من السماء على كل ما تصيبه فى الأرض ، وقد كانت هذه القضايا الوطنية والسياسية بالغة فى تعقدها الى حد لم يكن يرجى منه الخلاص لولا أن وقعت عليها هذه النازلة » .

« ان ظهور هذه القوة الجديدة فى تاريخ العالم ، أعنى قدرة رجل واحد على تغيير حضارة النوع البشرى ، يبتدىء من جنكيز خان ، وينتهى الى حفيده قوبيلائى خان الذى بدت فى عهده آثار الفرقة والانشقاق فى مملكة المغول المتحدة

المتماسكة ، والحقيقة ان التاريخ لم يشهد الى الآن قوة تشبه قوة هؤلاء المغول »[١] .

تدمير بغـــداد :

وأخيرا دخل هؤلاء الوحوش بعدما خضبوا أرض العالم الاسلامى كله بدماء أهله ، وأتوا عليه فى بغداد دار الخلافة الاسلامية ومركز العلم والمدنية الأكبر فى ذلك العصر بقيادة حفيده هولاكوخان ، ودمروها تدميرا ، ولاشـــك أن تفاصيل قتل المسلمين فى بغداد وتدميرها طويلة ومؤلمة ، ونستطيع أن نقدر مدى هذه الوقعة العظيمة ببيان بعض المؤرخين الذين شهدوا آثارها بأعينهم ، وسمعوا تفاصيلها من مشاهديها ، يقول المؤرخ ابن كثير :

« وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يوما ، ولمـــا انقضى الأمر المقدور ، وانقضت الأربعون يوما ، بقيت بغداد خاوية على عروشها ليس بها أحد ، الا الشاذ من الناس ، والقتلى فى الطرقات كأنها التلول ، وقد سقط عليهم المطر فتغـــيرت صورهم ، وأنتنت من جيفهم البلد ، وتغير الهواء ، فحصـــل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى فى الهواء الى بلاد الشام ، فمـــات خلق كثير من تغـــير الجو وفساد الريح ، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء »[٢] .

ويقول الشيخ تاج الدين السبكى :

« فأنزل (هولاكو) الخليفة (المستعصم) فى خيمة ، ثم دخل الوزير فاســـتدعى الفقهاء والأماثل ليحضروا العقـــد

---

(١) مأخوذ من « جنكيزخان » ص ١٤٧ .
(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٠٣ .

فخرجوا من بغداد فضربت أعناقهم ، وصار كذلك يخـــرج طائفة بعد طائفة فتضرب أعناقهم . ثم طلب حاشية الخليفة فضرب أعناق الجميع . ثم طلب أولاده فضرب أعنـــاقهم ، وأما الخليفة فقيل لهولاكو أن هذا ان أريق دمه تظلم الدنيا ويكون سبب خراب ديارك . فقام نصير الدين الطوسى(١) وقال : يقتل ولا يراق دمه . فقيل ان الخليفة غم فى بساط ، وقيل رفسوه حتى مات » .

---

(١) يصدق ذلك ما قاله الدكتور مدرس رضـــوى فى كتـــابه « أخبار وآثار خواجة نصير الدين طوسى » الذى نشرته جامعة تهران ، فقد اعتبر المؤلف نصير الدين الطوسى مسؤولا عن هذه الوقعة ، انه يقول :

« ان مكيدة الطوسى السياسية التى نجحت أخيرا هى أنه أثار هولاكوخان على استئصال الخلافة العباسية ، وتدمير القصر الملكى ، وقد كان هولاكو مأمورا من قبل أخيه منكوقا آن ، بالقضـــاء على الخلافة العباسية بعـــد استئصال الباطنية .

ان هولاكو بعث الى الخليفة المستعصم بالله الامر بالطاعة ، واستمرت المكاتبة على ذلك ، ولكن دون جدوى ، وأخيرا استشار هولاكو زملاءه ، وكانت المغول يعتقدون بسعد النجوم ونحسها ، فلمـــا أخبره منجم سنى المعروف بحسام الدين الذى كان ملازما لبلاطه بأن هذه ساعة نحس للغارة على بغداد ، وكلما تصدى ملك للاستيلاء على الخلافة فى مثل هذه الساعة أخفق فى ارادته ، وأصيب ببلاء ، فانك أيها الملك اذا أبيت الا أن تغير ، ينقطع المطر ، وتعم الزلازل والعواصف ، ويخرب العالم ، وأشد من كل ذلك ان الملك (منكوقا آن) يهلك ، فلما سمع بذلك هولاكو تردد هنيهة ، واستطلع رأى الطوسى وقال : ماذا تقول عن مصيرنا اذا أغرنا الآن على بغداد » فقال له الطوسى : ان الغارة على بغداد لا تؤول الا أنك ستحتل محل الخليفة ، ثم دعا هولاكو المنجم حسام الدين وطلب منهما المناظرة حول هذا الموضوع ، فقال له الطوسى ، لقد قتل آلاف من الصحابة رضى الله عنهم ولم يظهر فساد ، واذا كان هذا مما يخص العباسيين ، فانظر الى طاهر الذى قاتل الامين لمـــا أمره المـــأمون بذلك وقتله ، وقتل المتوكل على الله أولاده وغلمانه ، وقتل المنتصر والمعتضد الامراء والغلمان ولكن لم يحدث هناك زازلة ولا طوفان .

واستمر القتل ببغداد بضعة وثلاثين يوما ، ولم ينج الا من اختفى ؛ وقيل ان هولاكو أمر بعد ذلك بعد القتلى . فكانوا ألف ألف وثمان مائة ألف ؛ ثم طلبت النصارى أن يقع الجهر بشرب الخمر ، وأكل لحم الخنزير ، وأن يفعل معهم المسلمون ذلك في شهر رمضان . وأريقت الخمور في المساجد والجوامع . ومنع المسلمون من الاعلان بالأذان .. هذه بغداد لم تكن دار كفر قط . وجرى عليها هذا الذى لم يقع قط منذ قامت الدنيا مثله »(١) .

وقد ظلت بغداد ، على علاتها ومواضع ضعفها أكبر مدينة للعالم الاسلامى ، ومركز العلوم والفنون ، ومهد العلماء والصالحين . وكانت موضع فخر المسلمين لكونها دار الخلافة . فاضطرب لتدميرها المسلمون كلهم وبكوا عليها ، وقد قرض الشيخ مصلح الدين سعدى(٢) رحمه الله ، الذى أقام في بغداد كطالب ، وشهد بهاءها وجمالها قصيدة رثاء تنطق عن قلوب المسلمين الجريحة ، وشعورهم المكلوم في ذلك الوقت ، ننقل فيما يلى ترجمة لعدة أبيات منها يقول :

« ان للسماء كل الحق أن تمطر دما على الأرض لما أصاب مملكة الخليفة المستعصم من زوال وفناء ، اذا كانت القيامة حقا واقعا يا محمد عليه الصلاة والسلام ، فاحسر عن وجهك الرداء وشاهد القيامة بين الخلق اليوم ، لم يدر بخلد أى انسان أبدا أن حوادث الدهر تأتى بما أتت به اليوم ، افتح بصرك يا من شهدت عظمة البيت الحرام لتنظر أن الملوك

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى ج ٥ ص ١١٤ — ١١٥ .

(٢) أحد أئمة الشعر الفارسى ، صاحب كتابى « كلستان » «وبوستان» الخالدين في المكتبة العالمية .

دفنوا تحت التراب . واحتل محلهم المغول والخاقان.أهريقت دماء أبناء عم النبى صلى الله عليه وسلم على تلك الأرض ، التى كانت الملوك الكبار يخرون عليها ركعا سجدا . وأصبحت دجلة تزبد بدم أهلها ، وهى تمجن التراب فى نخـــل بطحاء بالدماء . ان وجه هذا النهر تغير وامتقع لونه من هذه الوقعة الهائلة وبدت التجاعيد فى هذا الوجه . ان النياحة لا تجدر على تراب هؤلاء الشهداء . فان أقـــل جزاء يستحقونه هى جنة الفردوس ، ولكن الواجب الدينى،وصلة الحب والعاطفة تجعل قلب المحب يعيش فى لوعة الفراق »(١) .

التتـــار فى الشـــام :

توجه التتار نحو حلب الشهباء بعد بغـــداد ، وعاملوها معاملة بغداد كما ذكره ابن كثير ، ثم تقـــدموا الى دمشق واستولوا عليها فى شهر جمادى الأولى سنة ٦٥٨ هـ .

وقعة عين جالوت وتراجع التتار عن مصر :

وكان التتار متوجهين نحو مصر بعد الشام بحكم الطبيعة، وكانت مصر وحدها التى لم تصبها ويلات التتار ، وقد كان ملك مصر الملك المظفر سيف الدين قطز قد تفرس أن التتار يزحفون الى مصر بعد الشام ، وعند ذلك يصعب التخلص من وطأتهم ، فرأى أن يخرج من مصر بالجنود ويشن عليهم الهجوم فى نفس الشام ، حتى وقعت الحرب بين عساكر مصر الاسلامية ، والتتار فى عين جالوت يوم ٢٥ من رمضان سنة ٦٥٨ هـ ، وانهزم التتار شر هزيمة بخـــلاف ما سبق لهم من

---

(١) كليات سعدى .

الحروب ، فخرجوا منها هاربين ، وتعاقبهم الجنود المصرية فقتلوهم وأسروا منهم عددا كبيرا ، يقول العلامة السيوطى فى كتابه « تاريخ الخلفاء » :

« فهزم التتار شر هزيمة ، وانتصر المسلمون ولله الحمد ، وقتل من التتار مقتلة عظيمة ، وولوا الأدبار ، وطمع الناس فيهم يتخطفونهم وينهبونهم »(١) .

وهزمهم الملك الظاهر بيبرس بعد انهزامهم فى عين جالوت مرات عديدة ، وأخرجهم من أرض الشام وطردهم منها ، حتى بطل المثل السائر « اذا قيل لك أن التتار انهزموا فلاتصدق »

انتشار الاسلام فى التتـــار :

وقبل أن ينجرف العالم الاسلامى مع هذا السيل الجارف العنيـــد ، وينطمس معالمه وملامحه ، (كمـــا كان المشاهد الملموس عند ذوى البصيرة والخبرة من المؤرخين المسلمين فى ذلك الحـــين) بدأت دعوة الاسلام تنتشر فجأة فى هـــذا الشعب ، ويتحقق على أيـــدى دعاة الاسلام ما لم يتحقق بالأسنة والرماح ، وبطش السلاطين والملوك ، وبدأ الاسلام يتسرب فى نفوس أعدائه ، ويأخذ بمجامع قلوبهم ، ان خضوع هذا الشعب الذى قهـــر المسلمين أمام الاســـلام من أغرب الوقائع والأحداث فى التاريخ ، فان هجوم التتر على العالم الاسلامى كالجراد المنتشر ، واخضاع العالم الاسلامى كله ، ليس من الغريب المدهش كمـــا يبدو فى الظاهر ، فان عالم الاسلام فى القرن الســـابع كان بدوره مصابا بتلك الأمراض

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٤٢٥ .

والأسقام ، التى تلحق الأمم عامة فى أوج حضارتها وشوكتها، بالعكس من التتر ، ذلك الشعب القوى الأبى الذى نشأ على حياة البداوة ، والهمجية والضراوة ، ولكن الغريب المدهش أن هذا الشعب خضع للمسلمين المفتوحين المقهورين، واعتنق دينهم فى أوج قوته ، وذروة سلطانه ، ذلك الدين الذى فقد كثيرا من سلطانه السياسى والمادى آنذاك ، وكان أتباعه موضع سخرية واحتقار فى نظر التتار .

وقد أبدى « أرنولد » استغرابه فى هذا الصدد فى كتابه المشهور Preaching of Islam « الدعوة الى الاسلام » حيث قال :

« ولكن لم يكن بد من أن ينهض الاسلام من تحت أنقاض عظمته الأولى ، وأطلال مجده التالد ، كما استطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين المتبربرين ويحملهم على اعتناقه ، ويرجع الفضل فى ذلك الى نشاط الدعاة من المسلمين ، الذين كانوا يلاقون من الصعاب أشدها لمناهضة منافسين قويين ، كانا يحاولان احراز قصب السبق فى ذلك المضمار ، وليس هناك فى تاريخ العالم نظير لذلك المشهد الغريب ، وتلك المعركة الحامية التى قامت بين البوذية والمسيحية والاسلام ، كل ديانة تنافس الأخرى ، لتكسب قلوب أولئك الفاتحين القساة ، الذين داسوا بأقدامهم رقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين فى جميع الأقطار والأقاليم »(١) .

---

(١) الدعوة الى الاسلام — ص ٢٥٠ (ترجمة جماعة من الاساتذة المصريين) .

« ويظهر أنه لم يكن من اليسير أن منافسة الاســـلام فى مستهل الحكم المغولى لغيره من الديانات القوية ، كالبوذية والمسيحية كانت عملا بعيـــد المنال ، اذ أن المسلمين كانوا قد قاسوا أكثر من غيرهم من ذلك الاضطراب الذى صحب غارات المغول ، وأن معظم هذه المدن التى كانت حتى ذلك الحين مجمع السلطة الدينية وكعبة العلم فى الاسلام فى القارة الآسيوية ، قد أصبح معظمها أطلالا دارسة ، حتى أن الفقهاء وأئمة الدين الأتقياء ، كان نصيبهم القتل أو الأسر(١) ، وكان من بين حكام المغول الذين عرفوا عادة بتسامحهم نحو الأديان كافة من يظهر الكراهية للدين الاسلامى على درجات متفاوتة، فقد أمر جنكيزخان بقتـــل كل من يذبح الحيوانات على النحو الذى قرره الاسلام ، ثم سار على نهجه قوبيلائى ، فعـــين مكافآت لكل من دل على من يذبح بهذه الطريقة ، واضطهد المسلمين اضطهادا عنيفا دام سبع سنين ، حتى أن كثيرا من المعدمين وجدوا فى سن ذلك القانون فرصة لجمع الثروة ، واتهم الأرقاء مواليهم بهذه التهمة لكى يحصلوا على حريتهم(٢) وقد عانى المسلمون أقسى ضروب العسف والشدة فى عهـــد كيوك (١٢٤٦ — ١٢٤٨ م) .

« وقد اضطهد أرغون (١٢٨٤ — ١٢٩١ م) رابع ايلخانات المغول فى فارس ، المسلمين فى بلاده ، وصرفهم عن كافـــة

(١ ، ٢) وقد بلغ من سوء المعاملة الوحشية التى لقيها هؤلاء ، أن رائدى الخيول من أهـــالى الصين ، كانوا اذا عرضـــوا اشباحا ، أظهروا البشر والحبور فى صلف واعجاب بعرض صورة تمثل رجلا مسنا ذا لحية بيضـــاء يجر حصان قد ربط ذيله برقبة هذا الرجل ، وانما هؤلاء يفعلون ذلك ليظهروا للناس كيف كان يتصرف فرسان المغول فى معاملتهم للمسلمين .

(Howorth vol. i. p. 159).

Howorth, vol. i. p. 165

Deguignes, vol. III, p. 265

المناصب التى كانوا يشغلونها فى القضاء والمالية ، كما حرم عليهم الظهور فى بلاطه(١) ، وعلى الرغم من جميع المصاعب، أذعن هؤلاء المغول والقبائل المتبربرة(٢) آخر الأمر لدين هذه الشعوب التى ساموها الخسف وجعلوها فى مواطىء أقدامهم »(٣) .

ان هذا الحدث مثار دهشة وعجب ، ولكن استغرابنا يشتد ، حينما لا نجد تفاصيله وافية فى بطون التاريخ ، اننا لا نكاد نعثر على أسماء هؤلاء الأعلام والأبطال الذين حققوا هذه المآثر ، وأدخلوا هذا الشعب الهمج فى حظيرة الاسلام ، مع أن هذه المأثرة لا تقل أهمية عن أى مأثرة اسلامية فى التاريخ ، ولهم فضل لا ينكر لا على رقاب المسلمين فحسب ، بل على الانسانية كلها ، الى أن يأذن الله لها بالفناء ، فانهم أنقذوا العالم من دمار محتوم ، ووضعوه تحت رعاية شعب يؤمن بالله وحده ، ويدعو الى دين محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

ان دولة جنكيزخان توزعت بعد وفاته الى أربعة فروع ، وبدأ الاسلام ينتشر فى هذه الفروع الأربعة ، وأصبح التتر يعتنقون الاسلام بجهود الخاقان ، حتى دخلوا فى ظرف مئة سنة فى دين الله ، وقد سرد أرنولد عدة أحداث تلقى الضوء على هذا الباب ، انه يحكى قصة شيوع الاسلام فى فرع جوجى خان الابن الأكبر لجنكيزخان ، الذى كان يحكم سيرا داردا ، الجزء الغربى من الدولة ، فيقول :

---

(١) وفى القرن الثالث عشر كان ثلاثة أرباع المغول أتراكا (Cahon p. 279).

(٣،٢) الدعوة الى الاسلام ص ٢٥٦ — ٢٥٧ — ٢٥٨ .

« وكان بركه خان (١٢٥٦ — ١٢٦٧ م) أول من أسلم من أمراء المغول : وكان رئيسا للقبيلة الذهبية فى روسيا بين سنتى ١٢٥٦ و ١٢٦٧ م(١) . وقد قيل فى سبب اسلامه أنه تلاقى يوما مع عير للتجار آتية من بخارى ، ولما خلا بتاجرين منهم سألهما عن عقائد الاسلام . فشرحاها له شرحا مقنعا انتهى به الى اعتناق هذا الدين والاخلاص له . وقد كاشف أصغر أخوته أول الأمر عن تغييره لدينه ، واعتناقه الاسلام ، وحبب اليه أن يحذو حذوه ، ثم أعلن بعد ذلك اعتناقه لهذا الدين »(٢) .

« وقد دخل بركه خان فى حلف مع ركن الدين الظاهر بيبرس (١٢٦٠ — ١٢٧٧ م) سلطان المماليك فى مصر ، الذى بدأ تلك العلاقات الوثيقة من جانبه ، فقد احتفى بشرذمة من جند القبيلة الذهبية يبلغ عددها المئتين ، ولما لاحظ هؤلاء الجند العداء المستحكم بين ملكهم وبين هولاكو فاتح بغداد ، وهم الذين كانوا ينضوون تحت لوائه ، فروا الى سورية ، حيث ييممون منها شطر مصر ، وهناك استقبلوا بكل مظاهر الحفاوة والتكريم فى بلاط بيبرس ، الذى أقنعهم بصحة الدين الاسلامى واعتناقه(٣) ، وكان بيبرس نفسه فى حرب مع هولاكو ، وقد هزمه بيبرس وأخرجه من سورية منذ أمد قريب ، وقد أرسل بيبرس اثنين من المغول اللاجئين وغيرهم من الرسل يحملون كتابا الى بركه خان ، وقد نقل هؤلاء عند

---

(١) ومن الاهمية أن نلاحظ أن نجم الدين مختارا الزاهدى ، وضع لبركة خان فى سنة ١٢٦٠ م رسالة تؤيد بالبراهين رسالة النبى الدينية ، وتدحض ما ذكره المنكرون لهذه الرسالة .

(٢) الدعوة الى الاسلام ص ٢٥٨ — ٢٥٩ (أبو الغازى ج ٢ — ص ١٨١) .

(٣) المقريزى (م) ج ١ ص ١٨٠ — ١٨١ ، ١٨٧ .

عودتهم الى مصر ، أن لكل أمير وأميرة فى بـــلاط بركه خان اماما ومؤذنا خاصا . وأن الأطفال كانوا يحفظون القرآن فى المدارس(١) . وكان من أثر هذه العلاقات الودية التى قامت بين بيبرس وبركه خان ، أن كثر الوافدون من رجال القبيلة الذهبية على مصر حيث اتخذوا الاسلام دينا لهم »(٢) .

انه يحكى قصة انتشار الاسلام فى الايلخانية الفرع الثانى لأسرة جنكيزخان ، ويقول :

« كان الاسلام أقل انتشارا فى بلاد الفرس حيث أسس هولاكو أسرة ايلخانات المغول ، ولكى يقوى على صد هجمات بـــركه خان وسلطان مصر ، تحالف هولاكو مع القـــوات المسيحية فى الشرق كملك أرمينية والصليبيين . وكانت زوجته المحببة اليـــه ، فعملت على استمالة زوجهـــا نحو اخوانها فى الدين ، كما تزوج ابنـــه أباقاخان (١٢٦٥ — ١٢٨١ م) من ابنة امبراطور القسطنطينية ، وقد طمع المسيحيون ، فعلقوا الآمال على اعتنـــاق أباقا خان المسيحية ، ولـــكن الأيام أظهـــرت أن تلك الآمال لم تـــكن الا سرابا خادعا ، وكان أخوه تكودار أحمد(٣) . الذى اعتلى العرش من بعده ، أول ايلخانات المغول الذين اعتقدوا الاســـلام فى فارس ، وقـــد شب على المسيحية ، لأنه (كمـــا يحدثنا بذلك كاتب مسيحى من معاصريه) (٤) ، « تعمد فى صباه وتسمى باسم

(١) المقريزى (م) : ج ١ ص ١٢١٥ .
(٢) الدعوة الى الاسلام — ص ٢٥٩ — ٢٦٠ (المقريزى)م/ص٢٢٢
(٣) أونيكودار على ما يسميه وصاف الحضرة ، وقد سمى أحمد بعـــد اعتناقه الاسلام .
(٤) (Hayton. Ramusio, Tom II p. 60, C.)

نقولا ولكنه دان بالاسلام عندما بلغ سن الرشد عن طريق اتصاله بالمسلمين الذين كان تلفا بهم . واصبح مسلمـــا دينـــا . ولما ارتد عن المسيحية . رغب فى أن يسمى محمد خان.وبذل قصاراه فى تحويل كافة التتار الى دين محمد وعقائده. وقد بعث تكودار أحمد بنبا اسلامه الى سلطان المماليك فى مصر (قلاوون) فى ذلك الكتاب : « الى سلطان مصر ، أما بعد . فان الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ونور هدايته . قد كان أرشدنا فى عنفوان الصبا وريعان الحداثة . الى الاقــرار بربوبيته والاعتراف بوحدانيته . والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام . بصدق نبوته وحسن الاعتقاد فى أوليـــائه الصالحين من عباده وبريته (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام) (١) . فلم نزل نميل الى اعلاء كلمة الدين واصلاح أمور الاسلام والمسلمين ، الى أن أفضى الينا بعد أبينا الجليل وأخينا الكبير نوبة الملك ، فأضفى علينـــا من جلابيب ألطافه ولطائفه ، ما حقق به آمالنا فى جزيل الآلـــه وعوارفه ، وجلى هذه المملكة علينا وأهدى عقيلتها الينـــا ، فاجتمع عندنا فى قوريلتاي Quriltay على الأصح) المبارك ــ وهو المجتمع الذى تقدح فيه الآراء ــ جميع الاخوان والأولاد والأمراء الـــكبراء ، ومقدمو العساكر وزعماء البـــلاد ، وانفقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير ، فى انفاذ الجم الغفير من عساكرنا التى ضاقت الأرض برحبهـــا من كثرتها ، وامتلأت الأرض رعبا من عظيم صولتها وشديد بطشها ، الى تلك الجهة ، بهمة تخضع لها صم الأطواد . وعزمة تلين لها الصم الصلاد ، ففكرنا فيما تمخضت زبـــد عزائمهم ، واجتمعت أهواؤهم عليه ، فوجدناه مخالفا لما كان

---

(١) سورة ٦ : آية ١٢٥

فى ضميرنا من اقتفاء الخير العام ، الذى هو عبارة عن تقوية شعار الاســـلام ، وأن لا يصدر عن أوامرنا ما أمــكننا الا ما يوجب حقن الدماء وتسكين الدهماء ، وتجرى به فى الأقطار رخاء نسائم الأمن والأمان ، ويستريح به المسلمون فى سائر الأمصار فى مهاد الشفقة والاحسان ، تعظيما لأمر الله وشفقة على خلق الله ، فالهمنا الله تعالى اطفاء تلك النائرة ، وتسكين الفتن الثائرة ، واعلام من أشار بذلك الرأى بما أرشدنا اليه: من تقديم ما يرجى به من شـــفاء مزاج العالم من الأدواء . وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء ، واننا لا نحب المسارعة الى هز النصال للنضال ، الا بعد ايضاح المحجة ، ولا نبادر لها الا بعد تبيين الحق وتركيب الحجة ، وقوى عزمنا على ما رأيناه من دواعى الصلاح ، وتنفيذ ما ظهر لنا به وجـــه النجاح ، اذ كان الشيخ قـــدوة العـــارفين (كمـــال الدين عبد الرحمن) ، الذى هو نعم العون لنا فى أمور الدين ، فأرسلناه رحمة من الله لمن (لبى) دعاه ، ونقمة على من أعرض عنه وعصاه ، وأنفذنا أقضى القضاة قطب (الملة) والدين ، والأتابك بهاء الدين ، اللذين هما من ثقات هـــذه الـــدولة الزاهرة ، ليعرفوهم طريقتنا ، ويتحقق عنـــدهم ما ينطوى عليه لعموم المسلمين جميل نيتنا ، وبينا لهم أنا من الله تعالى على بصيرة ، وأن الاسلام يجب ما قبله ، وأنـــه تعالى ألقى فى قلوبنا أن نتبع الحق وأهـــله .. فان تطلعت نفوس الى دليل تستحكم بسببه دواعى الاعتماد ، وحجـــة يثقون بها من بلوغ المراد ، فلينظروا الى ما ظهر من أمرنا مما أشتهر خبره ، وعم أثره ، فانا ابتدأنا بتوفيق الله باعلاء أعلام الدين واظهاره ، فى ايراد كل أمر واصداره ، تقديما لناموس الشرع المحمدى ، على مقتضى قانون العدل الاحمدى اجلالا وتعظيما ، وأدخلنا السرور على قلوب الجمهـــور ، وعفونا عن كل من اجترح سيئة واقترف ، وقابلناه بالصفح،

وغلنا : عفا الله عما سلف . وتقدمنا باصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد ذوالمدارس ، وعمارة بقاع الدين والربط الدوارس ، وايصال حاصلها بموجب عوائدها القائمة الى مستحقيها بشروط واقفيهـــا .. وأمرنا بتنظيم أمر الحجاج ، وتجهيز وفدها وتأمين سبلها ، وتيسير قوافلها ، وانا أطلقنا سبيل التجار المترددين على تلك البلاد ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم » ، وهو يلتمس محالفة سلطان مصر « بحيث تعمر تلك الممالك وتلك البلاد ، وتسكن الفتنة الثائرة ، وتغمد السيوف الباترة ، وتحل العامة أرض الهوينى ، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهون(١)* .

وان من يدرس تاريخ المغول ليرتاح عندما يتحول فجأة من قراءة ما اقترفوه من الفظائع وما سفكوه من الدماء ، الى أسمى عواطف الانسانية وحب الخير ، التى أعلنت عن نفسها فى تلك الوثيقة التاريخية التى كتبها تكودار أحمد الى سلطان المماليك فى مصر ، والتى يدهش الانسان لصدورها من مثل ذلك المغولى .

وقـــد أحفظ تـــكودار أحمـــد واضطهاده . المغـــول الذين كانوا شديدى الاتصال بهم برغم مخالفتهم فى الدين ،

---

(١) وصاف الحضرة ص (٢٣١ — ٢٣٤) .

* وقد ورد هذا الكتاب أيضا فى القلقشندى : صبح الاعشى ج ١ ص ٦٥ — ٦٨ ، وهو مؤرخ فى شهر جمادى الاولى سنة ٦٨١ (أغسطس سنة ١٢٨٢ م) ، وقد بعث به مع رسولين هما قطب الدين شيرازى وأتابك بهلوان، وقد رد قلاوون على ايلخان المغول بكتاب مؤرخ أول رمضـــان من الســـنة نفسها (٣ ديسمبر سنة ١٢٨٣ م) ، وقد ورد هذا الكتـــاب فى القلقشندى (ج ٧ ص ٢٣٧ — ٢٤٢) .

وشكوه الى قوبيلائى خان ، متهمين اياه بانه خالف بذلك سنن أجداده . وقد قامت فى وجهه ثورة على رأسها ابن أخيه أرغون الذى دبر قتله . ثم خلفه على العرش ، وفى أثناء حكم أرغون (١٢٨٤ — ١٢٩١ م) القصير ، استرد المسيحيون مكانتهم من جديد ، على حين لم يكن بد من أن يلقى المسلمون الاضطهاد ، فصرفوا عن كافة المناصب التى كانوا يشغلونها فى القضاء والمالية ، وحرم عليهم الظهور فى بلاطه (١) .

وقد ظل خلفاء تكودار أحمد على وثنيتهم ، حتى دخل غازان (١٢٩٥ — ١٣٠٤ م) سابع الايلخانات وأعظمهم شأنا فى الدين الاسلامى فى سنة ١٢٩٥ م . وجعله دين الدولة الرسمى فى فارس .

وقد شب غازان على البوذية قبل اعتناقه الاسلام . وشيد عدة معابد للبوذية فى خراسان . وكان يسر كثيرا بمصاحبة الكهنة الذين ينتمون الى هذا الدين ، والذين كانوا قد وفدوا الى فارس فى جماعات كبيرة منذ بسط المغول سلطانهم فى هذه البلاد(٢) . ويظهر أن غازان كان بطبعه يميل الى تقليب نظره فى المسائل الدينية . لانه درس عقائد الاديان المختلفة المنتشرة فى زمانه (٣) ، وقد أيد رشيد الدين ، وزيره العالم ومؤرخ عصره ، بالبرهان صحة اعتقاده الاسلام ، الذى أخذ على عاتقه المحافظة على شعائره فى حماس وغيرة طوال عهده (٤) » .

---

(١) De Guignes, vol. III p.p. 263 - 5

(٢) 1 p. 18 p. 148.

(٣) C. D. Ohsson, Tome IV p. 365

(٤) الدعوة الى الاسلام — ص ٢٦٠ — ٢٦٤ .

ان ابن كثير نفسه ذكر اسلام غازان فى وقائع ٦٩٤ هـ بارتياح بالغ . ويبدو منه — ويؤيده فى ذلك غيره من المؤرخين ان الفضل فى ذلك يرجع الى الأمير التركى الصالح توزون (١) فان ملك التتار أسلم بجهوده ، كتب ابن كثير فى وقائع ٦٩٤هـ. يقول :

« وفيها ملك التتار قازان ابن أرغون بن أبغابن تولى بن جنكيزخان فأسلم ، وأظهر الاسلام على يد الأمير توزون رحمه الله ، ودخلت التتار أو أكثرهم فى الاســلام ، ونثر الذهب والفضة ، واللؤلؤ على رؤوس الناس يوم اسلامه . وتسمى بمحمود ، وشهد الجمعة والخطبة . وخرب كنائس كثيرة ، وضرب عليهم الجزية، ورد مظالم كثيرة ببغدادوغيرها من البلاد ، وظهرت السبح والهياكل مع التتار والحمد لله وحـــده (٢) » .

يقول أرلونولد :

« أن أخاه أولجايتو Aljaytu الذى خلفه فى سنة ١٣٠٤م باسم محمد خدابنـــده(*) Khudabandah كان على

(١) يسميه أرنولد وغيره من المؤرخين « نورزبيك » .

(٢) البداية والنهاية ج ١٣ — ص ٣٤٠ .

* ذكر ابن بطوطة ج ١ ص (١٤٣) أن اسمه مختلف فيه ، وقد قيل خدا (بضم الخاء) ومعناها بالفارسية اسم الله وبنده ومعناها غلام أو عبد ، وقيل خربنده بفتح الخاء ومعناها بالفارسية الحمار وبنده ، معناها غلام أو عبد . فيكون عبد الله ، أو غلام الحمـــار ، وقد قيـــل أن سبب تسميته بهذا الاسم الاخير ، أن التتار يسمون الطفل باسم أول داخل الى البيت عند ولادته، فلما ولد كان أول داخل الزمال (الزمال صاحب الزاملة =

المسيحية دين أمه ، وعمد باسم نيقولا ، على أنه لم يلبث أن أسلم بعد موت أمه ، وهو لا يزال شابا فى مقتبل العمر ، وذلك بتأثير زوجته(١) . ويذكر ابن بطوطة(٢) . ان سيرة ذلك الأمير . كان لها أثر كبير فى نفوس المغول ، ومن ذلك العهد غدا الاسلام الدين السائد فى دولة ايلخانات فارس(٣) .

الفرع الثالث من هذه الاسرة كان يحكم البلاد المتوسطة ، وكان مؤسسها جغطائى بن جنكيز خان .

يقول أرنولد :

« وان ما لدينا من المعلومات عن تقدم الاسلام وانتشاره

= والزاملة ما يحمل عليه من الحيوان ، ولعله يريد هنا الحمار فسمى خربنده ، وذكر براون أن غازان لما تولى غر أولجايتو وظل مشردا يرعى الحمير فى اقليم كرمان هرمز ، ولذلك أطلق عليه اسم خربنده أو راعى الحمير ، وقيل أيضا أن أبوى الطفل كانا يطلقان عليه اسما قبيحا حتى لا تؤثر فيه عيون الحساد ، ولذلك سمى خربنده كما يسمى العرب ابناءهم بفهر وكلب وصخر ومعاوية ونحو ذلك تفاؤلا بأن يكون الولد فى كبره صخرا أو كلبا على عدوه ، وقال ابن الوردى (تاريخ الوردى ص ٢٦٤) أن خربنده اسمه خدابنده ، وان ملكه شمل بلاد العراق وخراسان والعراق العجمى وآذربيجان وديار بكر .
Hammer-Purgstall : Geschichte Der Ilchanen vol. II p. 182

(١) لا يبعد أن تكون سبايا الاسلام قد قمن فى تحويل المغول الى الاسلام ، ويظهر أن المرأة شغلت مركزا من مراكز الشرف والكرامة بين المغول ويمكن أن نأتى بأمثلة كثيرة تؤيد أنه كان لها أثر ظاهر فى الشئون السياسية ، وقد تحدثنا من قبل لذكر عدة حالات تبين مدى تأثير النساء فى أزواجهن فى المسائل الدينية .

(٢) ابن بطوطة — ص ٥٧ .

(٣) الدعوة الى الاسلام — ص ٢٦٤ — ٢٦٥ .

فى امبراطورية المغول الوسطى ، التى كانت من نصيب جغطائى ، لا يزال ضئيلا ، وكان كثير من أعقاب هذه الأسرة يستعينون فى دولتهم بوزير من المسلمين على الرغم من أنه لم يبد أى ميل الى الاسلام ، وقد ضيق جغطائى على رعاياه من المسلمين بما سنه من القوانين الشديدة الحرج ، التى ضيقت على شعائرهم الدينية ، فيما يتعلق بذبح الحيوانات للطعام وفرائض الوضوء ، ويذكر الجوزجانى أن جغطائى هذا كان ألد أعداء المسلمين من بين خانات المغول كافة . وقد بلغ من شدة عدائه لهذا الدين أنه لم يكن يرغب فى أن ينطق أحد بكلمة مسلم فى حضرته ، اللهم الا اذا أريد بها التحقير والحط من شأنها(١) ، وقد ربت أرغنة Orghana زوجة قراهولاكو Qara-Hulagu حفيد جغطائى وخليفته، ابنها على الاسلام ، وتقدم باسم مبارك شاه فى سنة ١٢٦٤م مطالبا بعرش خاقانية جغطائى ، الذى كان مثار النزاع بين أمراء المغول ، ولكن سرعان ما خلعه ابن عمه براق خان Buraq Khan، ويظهر أنه لم يكن لاسلامه أى أثر بين المغول ، فاننا لو رجعنا فى الواقع الى أسماء أبنائه ، لا نجد أحدا منهم قد دخل فى دين أبيه(٢) ، وقد قيل ان براق خان نفسه « قد أدركته البركة بتلقيه نور العقيدة » قبل موته فى سنة ١٢٧٠ م بأيام قليلة ، وأنه تسمى باسم السلطان غياث الدين(٣) ، الا أنه دفن حسب طقوس المغول القديمة ولم يدفن وفق شعائر الدين الاسلامى ، وأن من أسلموا فى عهده ارتدوا الى وثنيتهم الأولى ، ولم يتم انتشار الاسلام بين المغول فى مملكة جغطائى الا فى القرن التالى لاسلام مبارك خان ، ذلك على أثر اسلام طرما شيرين Tarmashirin

---

(١) الجوزجانى ص ٣٨١ — ٣٩٧

(٢) رشيد الدين ١٧٣ — ٤ ، ١٨٨

(٣) أبو الغازى ج ٢ ص ١٥٩ .

حول سنة ١٣٢٦ م ، وقد ظل المغول الذين اقتفوا أثر زعيمهم متمسكين فى هذه المرة بدينهم الجديد ، وعلى الرغم من ذلك ، لم يتاصل الميل الى الاسلام بعد فى نفوس المغول ، فان بوزن Buzan الذى كان خان المغول فى السنين العشر التالية (ولو أن صحة هذا التاريخ غير محققة) ، لم يلبث أن طرد طرما شيرين من العرش واضطهد المسلمين(١) . على أننا لم نسمع عن ظهور أول ملك مسلم فى كاشغر الا بعد سنين قليلة . وكان ضعف أسرة جغطائى قد أتاح لهذه المملكة أن تستقل بحكم هذه البلاد ، ويقول بعض المؤرخين أن اسلام تغلق تيمور خان Tuqluq Timur Khan (١٣٤٧ — ١٣٦٣ م) ملك كاشغر ، كان على يد رجل من أهل الورع والتقوى فى مدينة بخارى ، يقال له الشيخ جمال الدين ، وكان معه جماعة من التجار ، وكانوا قد اعتدوا على الأراضى التى خصصها ذلك الأمير للصيد ، فأمر بأن توثق أيديهم وأرجلهم ، وأن يمثلوا بين يديه ، ثم سألهم فى غضب : كيف جرؤوا على دخول هذه الأرض ، فأجاب الشيخ بأنهم غرباء ، ولا يعلمون أنهم يجوسون أرضا محرمة ، ولما علم الأمير أنهم من الفرس ، قال : ان الكلب اغلى من أى فارسى ، فأجاب الشيخ : « نعم ! قد كنا أخس من الكلب ، وأبخس ثمنا منه لو أننا لم ندن بالدين الحق » ولما راع الأمير ذلك الجواب أمر بأن يقدم اليه ذلك الفارسى الجسور عند عودته من الصيد ، ولما خلا به سأله ماذا يعنى بهذه الكلمات ، وما ذلك الدين ؟ فعرض عليه الشيخ قواعد الاسلام فى غيرة وحماس ، انفطر لهما قلب الأمير حتى كاد يذوب كما يذوب الشمع ، وصور له الكفر بصورة مروعة اقتنع معها بضلال معتقداته وفسادها ، وقال : « ولكنى اذا اعتنقت الاسلام الآن ، فلن يكون من السهل أن أهدى رعاياى الى الصراط

(١) رحلة ابن بطوطة ج ٣ — ص ٤٧ .

المستقيم فلتمهلنى قليلا . فاذا ما آلت الى مملكة اجدادى . فعد الى » . وذلك أن امبراطورية جغطائى انقسمت فى ذلك الوقت الى امارات صغيرة . وظلت على ذلك سنين طويلة حتى نجح تغلق تيمــور Tuqluq Timur فى توحيــد الامبراطورية كلها تحت سلطانه . وجمع كلمتها كما كانت من قبل . وفى هذه الاثناء كان الشيخ جمال الدين قد عاد الى بلده حيث مرض مرضا شديدا . فلما أشرف على الوفاة قال لابنه رشيد الدين : « سيصبح تغلق تيمور يوما ما ملــكا عظيما . فلا تنس أن تذهب اليه وتقرئه منى السلام ، ولاتخش أن تذكره بوعده الذى قطعه لى » ولم يلبث رشيد الدين الا سنين قليلة حتى ذهب الى معسكر الخان ، وكان قد استرد عرش امبراطورية آبائه . تنفيــذا لوصية أبيه ، ولكنه لم يستطع أن يظفر بالمثول بين يدى الخان برغم ما بذله من جهود ، وأخيرا لجأ الى هذه الحيلة الطريفة . ففى ذات يوم أخذ يؤذن فى الصباح المبكر على مقربة من فسطاط الخان . فأقلق ذلك الصوت نوم الخان وأثار غضبه . فأمر باحضاره ومثوله بين يديه ، وهناك أدى رشيد الدين رسالة أبيــه . ولم ينس تغلق تيمور وعده وقال : « حقا ! ما زلت أذكر ذلك منذ اعتليت عرش آبائى ، ولكن الشخص الذى قطعت له ذلك الوعد لم يحضر من قبل ، والآن فأنت على الرحب والسعة » . ثم أقر بالشهادتين ، وأصبح مسلما منذ ذلك الحين . « وأشرقت شمس الاسلام ومحت بنورها ظلام الكفر ... ولكى ينشر هذا الدين بين رعاياه اتفق تغلق تيمور ورشيد الدين على أن يستقبل الملك الأمراء واحدا بعد واحد . ويعرض عليهم الاسلام ، فمن قبله جوزى الجزاء الحسن ، ومن أباه ذبح كما يذبح الوثنيون وعباد الاصنام(١) »

---

(١) الدعوة الى الاسلام — ص ٢٦٥ — ٢٦٧

أما الفرع الرابع الذى ينتمى الى اجتائى خان والذى برز فيه من الملوك والفاتحين أمثال منجوخان ، وقوبيلائى خان ، والذى كان يحكم الجزء الشرقى من امبراطورية التتر ، فقد يقول فيه أرنولد :

« ولابد أن يكون هناك كثير من أنصار النبى قد انتشروا فى طول امبراطورية المغول وعرضها ، مجاهدين فى طى الخفاء لجذب الكفار الى حظيرة الاسـلام ، ففى عهد اجتـائى (١٢٢٩ — ١٢٤١ م) نقرأ عن اسلام بوذى يدعى Kurguz وكان حاكما على بلاد الفرس من قبل المغول(١) ، وفى عهد تيمور خان (١٢٢٣ — ١٢٢٨ م) كان آنندا Ananda حفيد قوبيلائى (١٢٥٧ — ١٢٩٤ م) وأمير كان سو مسلما متحمسا كما دفع كثيرا من أهل تانجوت Tangut وعددا كبيرا من الجنود الذين كانوا تحت أمرته الى اعتناق هذا الدين ، وعلى الرغم من استدعائه الى بلاط تيمور وبذل الجهد فى ارتداده الى البوذية ، أبى الا التمسك بدينه الجديد ، فألقى به فى غياهب السجن ، ولكنه لم يلبث أن أطلق سراحه بعد قليل خشية ثورة أهالى تانجوت الذين كانوا شـديدى التعلق بـه »(٢) .

وهكذا دخل هذا الشعب (الذى دوخ العالم الاسلامى كله ، وداس أطرافه بأقدامه ونعال خيوله ، والذى لم تتماسك أمامه أى قوة) فى دين الله الاسلام فى بضع سنين ، وبدت هذه الحقيقة مرة أخرى ، واضحة جلية ، ان الاسلام لا يزال يملك أكبر نفوذ ، ويتمتع بأغرب موهبة فى تسخير الارواح

---

(١) C. D. Ohsson, vol. III 121.

(٢) الدعوة الى الاسلام — ص ٢٥٨ (رشيد الدين ص ٦٠٠ — ٦٠٢)

وحسب الانصار والاصدقاء ، ان التتر لم يسلموا رسميا
وحسب ، بل برز فيهم عدد كبير من العلماء والفقهاء والمجاهدين
والدعاة والربانيين . وأهل الصدق واليقين . وأدوا دورهم
الثمين فى حماية حمى الاسلام فى ظروف دقيقة ولحظات
عصيبة من التاريخ .

فهرس

الموضوع	صفحة
غارة التتار وأسبابها الحقيقية فى ضوء القرآن . . .	٥
اوضاع مركز الخلافة والعالم العربى فى هذا العصر	٦
القسم الشرقى من المملكة الاسلامية	١٣
خطأ الملوك الخوارزمية	١٦
زحف التتار نحو العالم الاسلامى	١٦
الجزء الشرقى للعالم الاسلامى بين النار والدمار .	١٨
صاعقة نزلت على العالم كله	٢١
تدمير بغداد	٢٣
التتار فى الشام	٢٦
وقعة عين جالوت	٢٦
انتشار الاسلام فى التتار	٢٧

مطابع الاهـــرام التجارية

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٢/٢٧٦٠

واجه العالم الاسلامى فى القرن السابع الهجرى كارثة يندر نظيرها فى تاريخ العالم ، وكادت تقضى هذه الكارثة على شخصية العالم الاسلامى ، وهو زحف الوحوش التتار الذين تقدموا نحو الشرق كجراد منتشر ، وسيطروا على العالم الاسلامى كله .

والمعروف أن السبب فى هذه الكارثة ، هو خطأ ارتكبه السلطان علاء الدين محمد خوارزم ، وذلك أنه أمر بقتل التجار التتار الذين دخلوا بلاده لممارسة التجارة ، ولما أرسل اليه جنكيز خان سفيرا يسأله عن سبب قتل التجار ، قتله أيضا ، فاشتعل جنكيز غضبا ، وقام بحملة هوجاء على مملكة خوارزم شاه ، ثم على عالم الاسلام كله .

ولكن اذا تدبرنا فى ضوء ذلك القانون العام الخالد لنتائج الاعمال والاخلاق ، وازدهار الامم وانحطاطها الذى أشار اليه القرآن ، ولاسيما ما ذكره فى بدء سورة الاسراء من تدهور بنى اسرائيل وافسادهم فى الارض ، وعلوهم وتمردهم وما جر ذلك الى زحف الملوك الظالمين ، وتسلطهم على بنى اسرائيل وخراب المسجد الاقصى ، يبدو لنا أن السبب الحقيقى فى هذه الفتنة الكبرى ، والمحنة التى أصيب بها العالم الاسلامى ، ليس أن يقترف ملك أو حاكم من خطأ فى التدبير والسياسة ، فيتدفق سيل عرم من المحن والبلاء ، ويفاجىء العالم الاسلامى ، وتصاب الامة الاسلامية بهذه الفتنة العمياء — التى لم تكن تتوقعها ولا تستحقها — لمجرد أن يخطىء فرد من أفرادها .

اذا حملنا نبراس القرآن فى يدنا ، واستعرضنا أوضاع المسلمين لتحقق لنا ، ان هذه الحادثة المشئومة لم تكن مفاجاة ، وانما هناك أسباب اكثر عمقا وأصالة مما ظنه الناس وذكروه ، ولكى نبحث عن هذه الاسباب يجب أن نعود الى الوراء وندرس باجمال أوضاع الدول الاسلامية ومراكز الثقافة والمدنية والمجتمع فى ذلك العصر .

مطابع الاهرام التجارية

المختار الاسلامى
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة — ص. ب ١٧٠٧
هاتف ٩٣٦٤٩٦

م
٦